عندما تتحقق الأحلام

بقلم
عبد المعطى المسيرى

انتبه الدكتور شاكر من نومه اثر حلم مزعج زال عنه النوم ، واورثه القلق والسهاد .. رأى أنه بينما كان يتمشى على شاطىء النهر سمع صيحة استغاثة ، فلما التفت نحو مصدر الصوت ، الفى « سميرة » ـ الفتاة المريضة بقلبها والتى يتولى علاجها ـ مشرفة على الغرق ، ورغم انه لم يكن الوحيد ـ فثمة اشخاص كانوا أقرب الى مكانها منه ، فقد توجهت اليه بتوسلاتها تستصرخه وتستجديه المعونة مرددة : « انقذنى يا دكتور ، انقذنى يا دكتور » .. ولكنه لم يسارع الى نجدتها كما ينبغى بل طفق يخلع ملابسه ببطء وقلة اكتراث ، وعندما هم بالنزول الى الماء كان كل شىء قد انتهى » .

وقد مكث الدكتور شاكر بضع ساعات مثقل الفكر ، مضطرب الخاطر ، كلما حاول أن يخفى عنه هواجس منامه ، أو كلما انقل جفنه النعاس ، ايقظه طيف « سميرة » وهى تعلو وتهبط فى الماء صائحة . « انقذنى يادكتور ، أنقذنى يا دكتور » .

وفى الصباح شرع يرتدى ملابسه وما تزال الرؤيا ماثلة فى مخيلته ، يلح عليه من كل جانب ، وتتمثل له فى كل شىء .. فسميرة فى المرآة تغسل الماء ، وفى أرجاء الحجرة تتصرخ وتستغيث .

وركب سيارته قاصدا العيادة ، ولكنه عندما بلغ مفترق الطرق ، انحرف عن طريق عيادته ، واتجه صوب منزل

المريضة ، وما كاد يدنو منه حتى سمع الصياح والعويل .. !!

لم يسبح فى فكره أن ما حسبت به أحلامه ستصدمه به اليقظة ، ولم يكن يخطر بباله أن فرق سميرة فى المنام يعنى شيئا من الحقيقة ، فحاول أن يتحسب مواجهة أهلها ، ولكنه لم يلبث أن وجد نفسه بينهم وقد شرقوا بدموعهم ، وتلظى الهم بين ضلوعهم ، فهم بين منقبض صدر ، ولهيف قلب ، فواساهم ما استطاع الى ذلك سبيلا ، وانكفأ راجعا بعد أن رأى تعبير حلمه ، فقد أساء أحدهم بأن « سميرة » كانت وهى فى سكرات الموت تلفظ بها هذه الكلمات : « اغثنى يا دكتور ، انقذنى يا دكتور » .

* * *

ودارت عجلة الزمن .. وأصبح الدكتور شاكر انسانا جديدا ، فقد أثار حلم سميرة ما كمن فى قلبه من سماحة طبع ، ودماثة خلق ، وترك فى نفسه أعمق الأثر .

كان يشعر شعورا قويا بتبعة التقصير ازاء « سميرة » لأنه آثر الراحة والتمطى فى الفراش على القيام بالواجب ، والاستجابة لندائها .. وكثيرا ما هتف به ضميره : « من يدرى يا شاكر ، ربما كانت فى حاجة الى جرعة ، او حقنة ، ومن يدرى أيضا ربما كان فى الحقنة أو الجرعة ما يدفع عنها يد الموت ؟! »

وكان لا يجد سبيلا للتكفير ، وتخفيف ثقل وطأة التبعة ، الا فى اشاعة الخير بين الناس ، وتوخى المنفعة لهم ، فى مواساة المساكين ، ثم فى العمل الدائب ، والسعى الدائم .

جعل يحسن على الناس بعلمه ، كما يحسن عليهم بماله ، لا يرد داعيا ، ولا يبخل على فقير ، ولا يعوقه عن مرضاه برد ، ولا قيظ ، لا يسرى عنه الا العمل ، العمل المتصل حتى لم تعد له أوقات فراغ ، اذ يندو على الدوام وكأنه مطالب بعمل لا يحتمل الارجاء .

وكان كلما امعن فى اسداء المعروف شعر بالغبطة تسرى فى كيانه ، وكلما اسرف على نفسه فأرهقها بالعمل المضنى ، تنسمه راحة ضميره ، تعب بدنه فيرتمى بجسمه فى الترفيه عن النفوس والابدان .

* * *

ثم دارت عجلة الزمن .. واستطارت شهرة الدكتور شاكر بين الناس .. وحاصة الفقراء فقصدوا اليه من مختلف الأنحاء يلتمسون طبه وبره .. واغتبط الجميع بهذا التغيير الطارىء ، وكان أشدهم اغتباطا وفرحا روحه « بسرية هانم » فقد طرأ عليها تغيير مماثل فى احتفالها به ، ولعنايتها له .

كانت لا تلقاه الا كاشحة متجهمة ، وكانت تنفر على الدوام من تودده اليها ، ولا تجد حرجا من التلميح بما تكن له فى قلبها من بغض ، وما يجيش به صدرها من وغر .. فلما انغمر فى تيار عمله ، فمرته نجاحها وقبلاتها ، وتكل ما كانت تضن به عليه .

وهكذا فاز الدكتور شاكر براحة ضميره ، وتقدير الناس ، وقلب بسرية

وحبها .. ولم يكن يقدر ابدا أن « بسرية » قد تتحت له طاقة فى قلبها، لأنه بعمله المتواصل ، وانشغاله الدائم قد قتح لها ما كان موصدا من الأبواب !

ومن أين له العلم بانها كانت لا تميل اليه ، ولا تعده بطل احلامها !؟ ثم من أين له أنها كانت تؤثر عليه صديقه الأستاذ فوزى !؟ وانها قد وهبته حبها وقلبها .. وبدنها !؟

لقد اجتمع لصديقه فوزى ما يروق فى عين امرأة متقدة النفس ، تفيض حركة وطربا كبسرية هانم ، فهو عريض المنكبين ، فاره القامة ، فاحم الشعر، يضطرم فى حلومه الشباب والطيش واللهو ، وتضطرب فى راسه اساليب متفقة من الاغراء والاحماء .. فهو مع شاكر نعم الصديق ، ومع بسرية نعم العشيق !!

وكانت بسرية تختلس الوقت اختلاسا لتلتقى به ، فلما انغمس روحها فى عمله، سنحت لها الفرصة فتهافتت على ملذاتها ، ولجت فى غلوائها ، وبقدر ما ارتمى الدكتور شاكر بحماسه فى العمل ، ارتمى العاشقان فى تيار النهتك والعبث ، يعبان من نشوة اللذة الاثمة .. وكانما أحست بسرية نحو روحها شيء من تقدير الجميل ، لاتاحته الفرصة لها — ولو عن طريق غير مباشر فكانت اذا التقت به — وما أقل ذلك ، تعمره بفيض من قبلاتها وضحكاتها ، وتبيح له من السعادة ما كان محرما عليه !!

ولكن اذا كان الدكتور شاكر قد ربح راحة ضميره ، وفاز بتقدير الناس ، وبتودد روحه .. واذا كانت بسرية قد منيت باشباع ميلها الفطرى الى العبث والطيش فقد خسر الاثنان انفسهما فريد !!

فقد نوعك الطفل اول الامر ، ولكن اباه استهون المرض فلم يحفل به ؛ وضن بشيء من وقته أن يضيع فى هذا التوعك البسيط وهو لا يكاد يجد وقتا لمرضاه الذين تعتك بهم اوجاع الاسقام.. وبسرية هانم كانت لا ترى الدنيا الا من جانب واحد : جانب اللهو والمجون كانما قد اعطيت الحياة لتهبها لهذا الجانب دون غيره !!

وعلى هذا النحو كان الوالد فى واد ، والام فى آخر ، والصغير بين الاثنين موعوك مضنى ، يزداد توعكه ، وتتفاقم علته .

وفجاة استفاق الاثنان على أبن فريد وهزاله ... استفاقا فوجدا تلك الطفولة النضرة الضاحكة ، وتلك البراءة السمحة الرفاقة قد استحالت الى تهدم فى البدن ، وتهضم فى الوجه ..

وبذل الدكتور ما فى وسعه ليعرف مرض ابنه ولكنه لم يوفق ، فليس ثمة علة ظاهرة فاستعان باصدقائه الاطباء فعشيهم من الحيرة ما عشيهم ، ولكنهم

اجمعوا على أمر واحد وهو ان الطفل بحاجة الى الراحة والهدوء والهواء ..

وبعد حديث قصير مع بسرية ، انتقلت بطفلها الى ضيعة الروح فى ضواحى المدينة بعد أن زودهما شاكر بما يناسب الصغير من علاج .

وأوى الدكتور شاكر الى فراشه ذات مساء ، ولكنه لم يلبث ان هب مذعورا ، فقد عودته رؤياه القديمة .

فعريد يستصرخ ويستغيث : « اغثنى يا أبى ، ادركنى يا أبى !! » .

وتراقص طيف الطفل فى ارجاء الحجرة ، وفى المرآة يئن ويتوجع !!

لقد جرب شاكر عامة الاعمال ، وعلمته التجارب أن أوهى التوالى يختفى فى طياته افدح النتائج ، ولذلك لم يدع لحظة تفر منه .

استقل سيارته وانطلق بها ينهب الارض نهبا ، واقترب من الضيعة .. ودنا من منازلها القليلة فسمع الصياح والعويل !!

ها هى المأساة تتكرر !! اسمعاتة فى الحلم ، ثم الصياح والعويل ، فالموت ..

ولكنه لم يلبث ان تحقق ان الاصوات المفجعة لم تصدر عن بيته ، وانما عن البيت المجاور ، بيت شركائه فى الضيعة .. فدار بخاطره ان يواسى جيرانه اولا ، ولكن شيئا خفيا حمل قدميه نحو منزله .

فتح الباب ، وارتقى الدرج ، وفى نفسه أن يفاجىء ولده وزوجه لتح لهما نشوة اللقاء الطارىء .

ودلف الى حجرة الصغير فرأى الظلام الدامس ، والهدوء الشامل .

اشعل مصباحه الكهربائى واقترب ..

لا شىء سوى الصغير بئس ويتوجع .. ولا شىء سوى المقاعير ومقياس الحرارة وقد علاها الغبار !

الصغير وحجرته ، وطرق علاجه ، كل هذه تنبىء عن الاهمال وتشى به .

ولكن اين بسريه !! ؟

اتجه الى الغرفة الاخرى فرأى النور يشع من خلال فرجاتها .. وسمع حديثا وضحكا يصدر منها ، فتقدم على اطراف اصابعه كالشبح ، فرأى .. ويا لهول ما رأى ، وسمع ويا لهول ما سمع !!

رأى بسريه وفورى فى فراشه يتعانقان ويتضاحكان .

انجابت السحب فجأة عن مخيلته فلوحت فى نظره صورة الزوج والصديق ولكنه تماسك ..

لقد شعر انه فى موقف لا يحدى فيه العزل ، ولا العنف .. شعر انه من الفن ان يحبس مارامن نفسه عليه من هدوء وتسامح ، وان يتعقل ويثور على من لا يستحق الانصال والثورة ..

واشرقت بصيرته عندما طرق أذنيه نأمة أنين ولده فرجع اليه وقبله ، ثم قبله ..

وبهدوء كهدوء المساء العميق الذى تضطرب فى جوانبه الافكار والاسرار ، وهو ساكن السطح ، بارد الاديم ، أخرج ورقة من جيبه وكتب فيها هذه الكلمات :

« لقد اردتنى هذه القسمة ! لك العشق والصديق .. ولى عريد » .

ثم وضع الورقة على الفراش مكان الطفل وحمله ، وقفل راجعا الى المدينة .